بوابات بازلتية لمقابر كهفية من الأردن عليها رموز دينية عراقية قديمة

عبدالجليل عبدالعزيز عمرو

ملخص: نتج عن هجرات شعوب سامية إلى أرض الرافدين فكر ديني مشترك، جمع بين أفكار دينية سومرية محلية ذات طبيعة أرضية وأفكار سامية تعظم الظواهر الكونية، فكان القمر واحداً من تلك الظواهر التي مارس المجتمع الجديد عبادتها بأساليب متعددة، كان منها الدفن في هذه المقابر الكهفية المغلقة بالبوابات الحجرية وما عليها من رموز في مواقع أم قيس وهام وقويلبة في شمالي الأردن. من هنا جمعت المعبودات: ان، نانا، السومرية/عشتار السامية مظهرين، هما: المظهر الأرضي والنجمي فهي ممثلة بالخصب على الأرض، ويحكم ايقاعها القمر في السماء الكوني. تنزل عشتار من خلال بوابات سبع إلى العالم الأسفل فتختفي معها كل مظاهر الطبيعة الخضراء وبعودتها إلى العالم العلوي تعود معها تلك المظاهر، فهي بذلك تماهي القمر في أيامه السبعة الأخيرة، اذ بغيابه يحل الظلام وبعودته يعود النور والأمن ويتبدد الظلام. إن عشتار بهذه الصفة، وبرموزها المنحوتة على البوابات موضوع البحث، لتؤكد على وجود أسلوب من أساليب عبادة القمر في الشمال الأردني، ولكن عشتار في هذه المواقع الكلاسيكية بالأردن تحمل اسماً جديداً لها، بعد ان عادت إلينا به من رحلتها إلى بلاد اليونان، وهذا الاسم هو افروديت المقابر الهلنستية، افروديت – فينوس الرومانية.

Abstract. The emigrations of Semite people to Mesopotamia had created a joint religion with the local people , the Sumerian. As the Sumerian grandeured natural phenomena , the Semite grandeured the Supreme Being. Thus the moon was one of those phenomena that the new amalgamated people had practiced it>s worship in different ways , one of which was the dead burried in cave – like tombs. These caves at Um-qeis , Ham , Queilbeh were Locked by stone gates. those gates have a sculpted symbols on their eternal surfaces that proved to be religious. In – Nana (The Sumerian) , Ishtar in the Semite had two forms , as noticed in the research , the landy and the astral ones. As the spring season comes to and end , that means In-Nana/Ishtar of nature went down through seven gates to the under world , and when spring comes back , this means Ishtar freed from there and return to the life – here. By this character Ishtar representing moon who goes into dark in the last seven days of its life , and when re-born , light spread all over and darkness disappeared. The cave-tombs , gates and symbols of Ishtar have ensured one of the ways of moon worship in Northern Jordan. But Ishtar in these classical Jordanian Sites bears a new name that she got it after returning from its journey to Greece. That name is Aphrodite of the Hellenistic tombs , and Aphrodite – Venus of the Romans.

مقدمة

عُثر على هذه البوابات – موضوع البحث – في مواقع أثرية مهمة في شمالي الأردن، وهي: هام والقويلبة وأم قيس (الخريطة رقم ١). وبينما نقلت البوابتان من هام والقويلبة إلى العاصمة عمان، لتعرض الأولى في ساحة المتحف المفتوح بالجامعة الأردنية، وتعرض الثانية في ساحة متحف الآثار الأردني، ظلت بوابات مقابر أم قيس في مكانها بالمدينة. والبوابات جميعها من حجارة بازلتية سوداء باستثناء واحدة منها، هي بوابة مقبرة هام وواجهتها من الحجارة الكلسية البيضاء (اللوحة ١، الشكل ١).

و«هام» هي قرية صغيرة تقع على بعد ٦كم جنوبي مدينة اربد، نفذت فيها أعمال طرق سنة ١٩٨٤ فكشفت عن قبر كهفي تبين من الحفريات التي جرت فيه أنه استخدم في فترتين زمنيتين تمثلت الأولى باستخدام الحجارة الكلسية

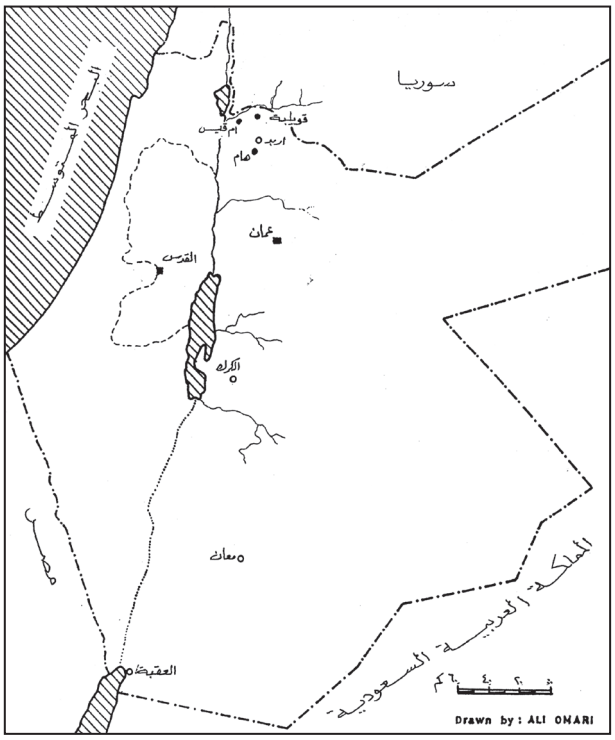

الخريطة ١: تبين مواقع البوابات، موضوع البحث .

والثانية في بناء جدران فاصلة داخلية. وأما مساحة القبر فكانت ٤ر٢٤م × ١٠م.

إن أهم الموجودات في هذا القبر توابيت حجرية وأسرجة فخارية وبعض الزجاجيات، وجميعها مبعثرة ليست في مكانها الأصلي، وبها أُرخ القبر إلى العصر الروماني المتأخر. على أن أكثر الموجودات مهابة في هذا القبر واجهته التي هي بوابة كانت تغلق المدخل ثم عثر عليها ملقاة بجانبه، وقد نحتت على عتبها العلوي زهرتان متفتحتان، تتكون كل واحدة منهما من خمس بتلات، وبينهما نحت بارز لأنثى، وعلى يمين الواجهة نحت بارز أيضاً ولكن لأفعى تنشب إلى الأعلى بحركة ملتوية، كأنها تريد أن تعتمد على ذيلها ورأسها تجاه العتب، أما يسار الواجهة فعليه نحت بارز لمشعل (Torch) (Shraideh & Lenen 1984:299).

والقويلبة كانت واحدة من اتحاد المدن اليونانية المعروف باسم الديكابولس، وتبين من نقش يوناني عثر عليه في

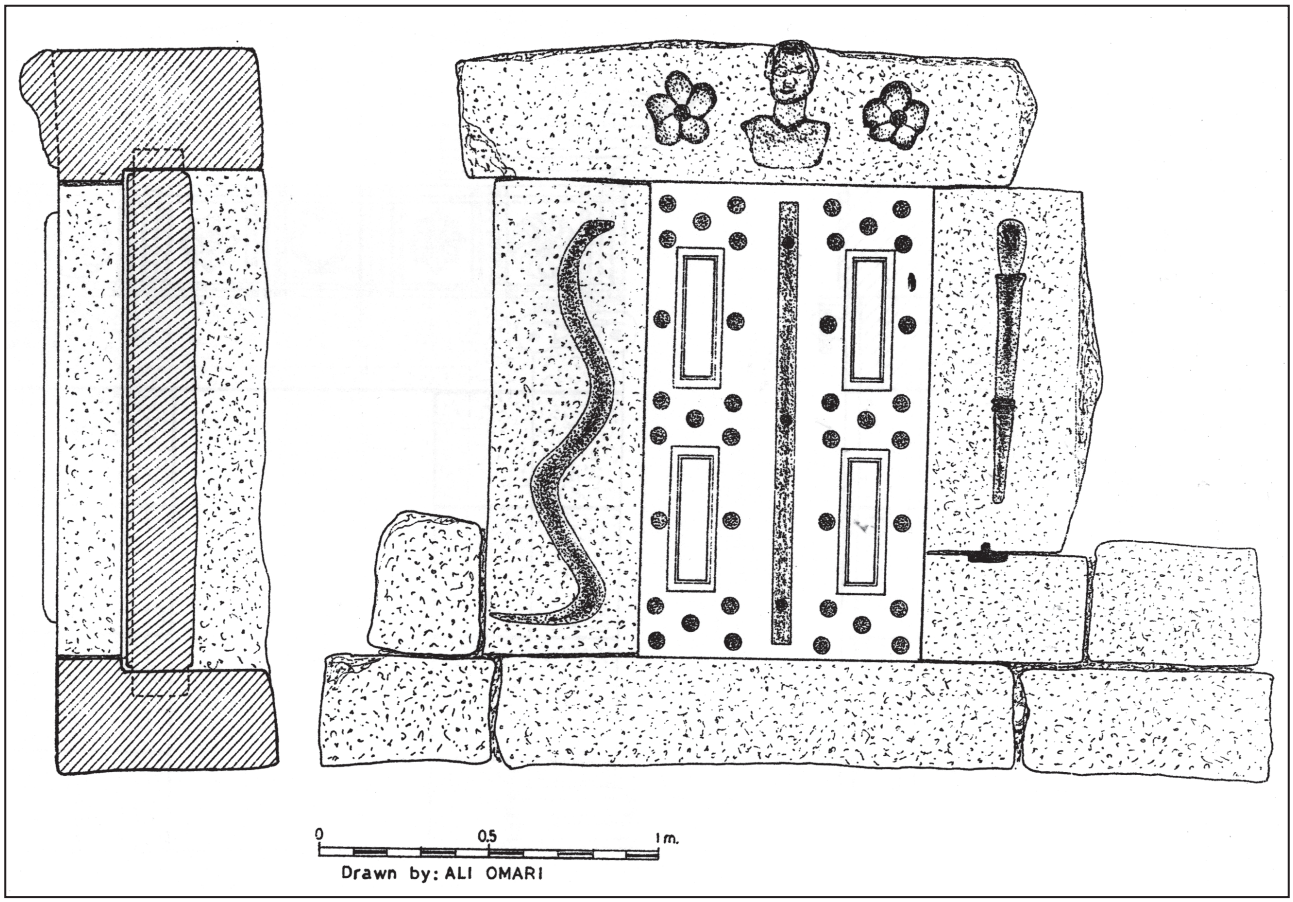

الشكل ١: بوابة مقبرة هام مع الواجهة

اللوحة ١: بوابة مقبرة هام مع الواجهة

الطبقة البيزنطية من طبقات الحفر في الموقع وكانت تدعى باسم ابيلا (Abila). وتدل الآثار الباقية أن هذا المكان سكن بأعداد قليلة في العصر الحجري الحديث، ثم استمر السكن فيه حتى العصر الأيوبي المملوكي، وكان العصران البرونزي المتوسط والأخير، كما يتضح من الفخار، هما أكثر العصور ازدحاما بالسكان، وكذلك العصران الحديدي الأول والثاني ثم الروماني والبيزنطي وكذا الإموي.

كشفت الحفريات في القويلبة عن معبد هلنستي – روماني مزخرف بدهان يمثل أعمدة ذات تيجان أيونية، وقد عثر على تيجان أعمدة من هذا النوع محطمة في الوادي ما بين أبيلا وأم العمد على التلة المقابلة، كما عثر على كسر فخارية من العصر الروماني والروماني المتأخر وقطع نقدية تؤكد الاستيطان الروماني. وتؤكد المكتشفات أيضاً أن سور المدينة الشمالي بني في العصر الروماني، وكذا المسرح والأوديون.

أما العصر الهلنستي فيتمثل في الموقع بأعداد من الكسر الفخارية تعود إلى نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الأول قبل الميلاد، وحواف فخارية ذات لون أسود من الخارج وأحمر من الداخل، كما عثر على قطع نقدية يونانية تؤرخ إلى ما بين ١٥٥ – ١٥٤ق.م (Mare 1989: 475-77).

أما البوابة البازلتية التي أغلقت بها أحد المقابر الكهفية من القويلبة فقد زخرف مصراعيها، شأنها في ذلك شأن باقي بوابات البحث، بمستطيلات بمعدل اثنين طوليين على كل قسم من أقسام الباب البازلتي المنقسم إلى مصراعين متساويين يلتقي بعضهما بعضا إذا أغلقا، وفي داخل هذين المستطيلين مستطيلات أخرى تصغر كلما اتجهنا نحو المركز (الشكل ٢–أ، ٢–ب)، إضافة إلى أنه نثرت على السطوح الخارجية لمصارع الأبواب جميعها كرات نُفّذت بأسلوب النحت البارز، ووزّعت بانتظام في مجموعات ما عدا البابين (الشكل ٣–ب، الشكل ٤)، حيث نحت على جانب واحد فقط لكل منهما خمس كرات، يكتمل بها شكل الباب (وزخرفته) عندما يُغلق.

أما مدينة أم قيس (جدارا قديما) فهي من مدن

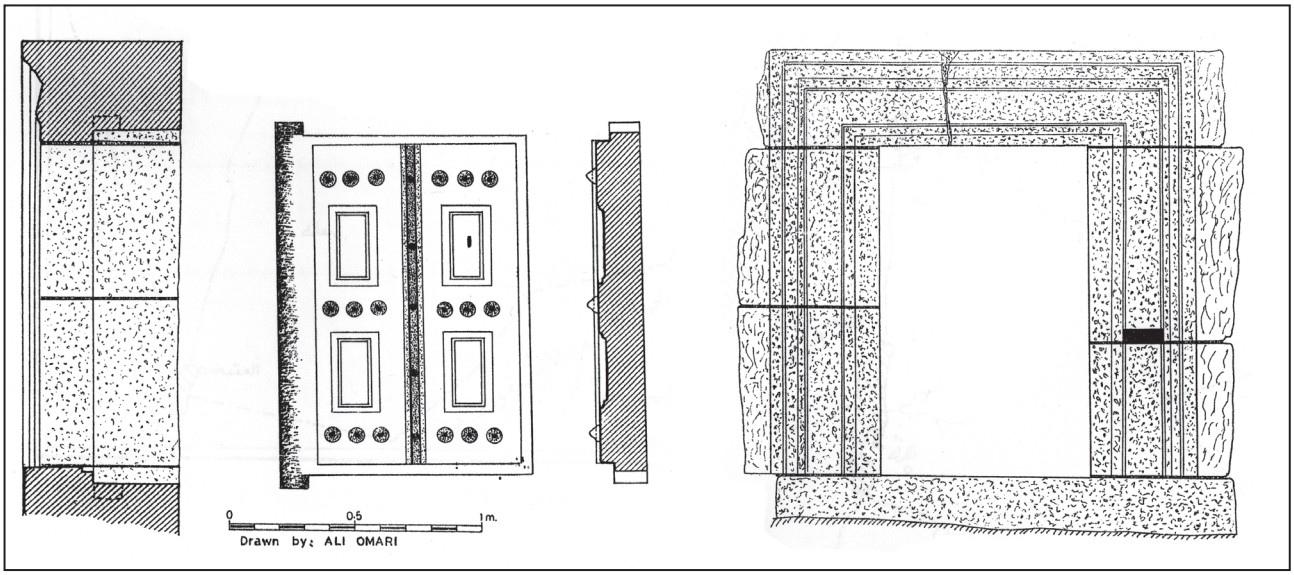

الشكل ٢–أ: واجهة المدخل لمقبرة من القويلبة

الشكل ٢–ب: المقبرة

الديكابولس أيضاً ولقد تبين من خلال المسوحات والحفريات التي جرت في المدينة منذ عام ١٩٧٤م أنها كانت مسكونة منذ القرن السابع ق.م، أما أبنيتها فهي من الحجارة البازلتية السوداء خاصة المداميك السفلى التي تعلوها حجارة كلسية، وهناك أبنية حجارتها بازلتية خالصة وأخرى كلسية، إضافة إلى وجود كهوف طبيعية استخدمت كمقابر. أما الفخار المكتشف في المدينة فكان من النوع الاتيكي المزجّج، كما عثر على كسر فخارية أخرى من العصور الرومانية والبيزنطية والإسلامية (Weber 1989: 607).

أصبحت أم قيس مع بداية القرن الرابع الميلادي أبرشيه لها أسقف حضر مجمع نيقيا عام ٣٢٥م. وقد اتضح من خلال الحفريات التي جرت في الكنيسة المركزية أن المدينة ترتقي لأن تكون من المراكز النصرانية المهمة كما بصرى وجرش ومادبا (Nielsen 1989:598).

على العتب العلوي لواجهة بوابة مقبرة في هذه المدينة نحت بارز لأربعة أعمدة متجاورة تذكر شكل الميتوب (Metope) في العمارة اليونانية، تعلوها حجارة منحوتة كهيأة الكورنيش (Cornice) اليوناني أيضاً، لا يزال جزء منه باقيا إلى يسار الواجهة بينما تهدمت الأجزاء الأخرى المكملة لشكله العام. وتتعاقب الأعمدة الأربعة مع شكل نحتي بارز يشبه الدوامة (Whirler)، ثم مع نجمة ثمانية الزوايا، يليها إكليل من الغار يتوسط العتب الآنف ذكره، ثم تعود الأعمدة للتعاقب مع النجمة والدوامة في عملية تناظر زخرفي متعمد مبين. وقد بنيت على جانبي البوابة حجارة شكلت في مجموعها قاعدة العمود الأيوني وتاجه، وهو العمود المشتهر بانحنائه الحلزوني (اللوحة ٢، الشكل ٥أ).

هذا ويظهر على العتب العلوي أيضاً لبوابة مقبرة أخرى من أم قيس (الشكل ٣أ) نحت لزهرتين؛ في النحت البارز لاحدهما هيئة نجمة ثمانية الزوايا؛ أما الأخرى فطبيعية غير محورة، تتكون من سبع بتلات؛ وما بين الزهرتين نحت بارز لإكليل (Wreath) من الغار. كما نحتت أيضاً زهرتان طبيعيتان تتكون كل منهما من ست بتلات على عتب يعلو بوابة ثالثة لمقبرة من أم قيس أيضاً، ويفصل بين الزهرتين نحت بارز أيضاً لإكليل من الغار (الشكل ٤).

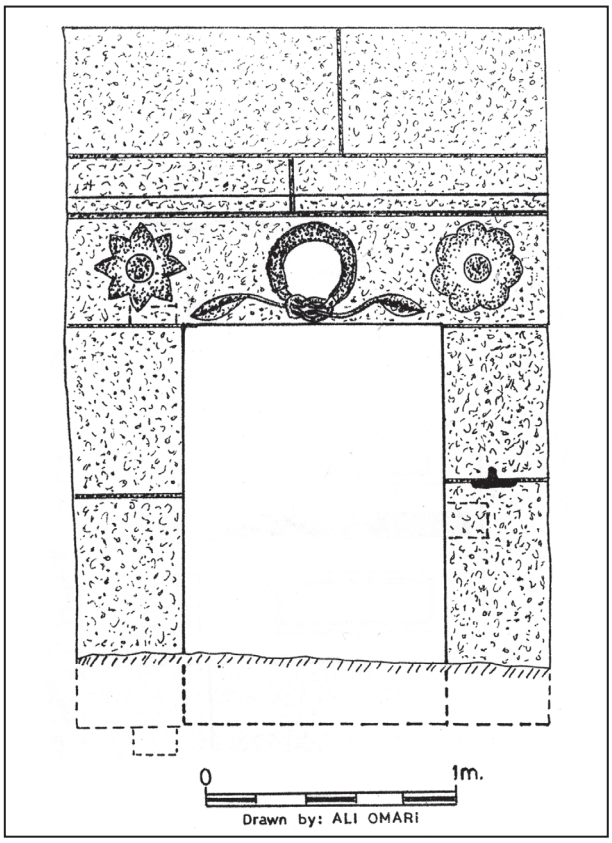

الشكل ٣-أ: واجهة مدخل لمقبرة من أم قيس

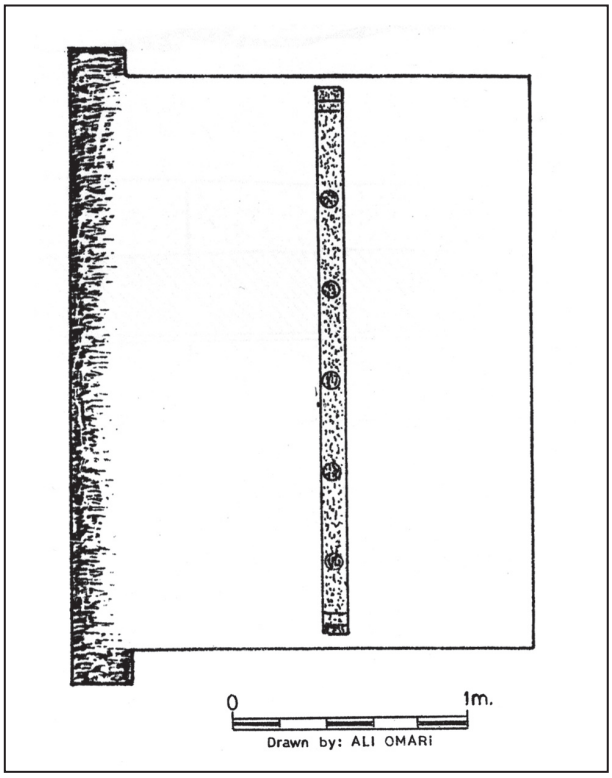

الشكل ٣-ب: باب المقبرة

اثر الظواهر الطبيعية في تفكير الإنسان القديم

عندما خلق الإنسان في هذا الكون لا بد أنه رأى ما يحيط به من سماء مملوءة بالأجرام السماوية المتفاوتة في إضاءتها، وأرض يابسة وأخرى مغمورة بمياه المحيطات والبحار والانهار التي تعززها مياه الأمطار. رأى الطبيعة بتضاريسها وحيواناتها ونباتاتها، وعاين الظواهر الجوية بمعناها المطلق، والأرضية كالزلازل والبراكين، إلى غير ذلك من الظواهر المرعبة. أمام ذلك كله، كان من الطبيعي أن يبحث الإنسان عن وسيلة يتقي بها تلك الاخطار، فوجد في المرأة الشريك المعين، لما رأى فيها من صفات بدنية وأخرى عملية اختصت بها دونه، فأحبها لأنها تهب الحياة لأطفاله بما يفيض من صدرها من لبن الحياة، فهي بهذه الصفة كالطبيعة التي تهب هي الأخرى العشب ليعيش الحيوان

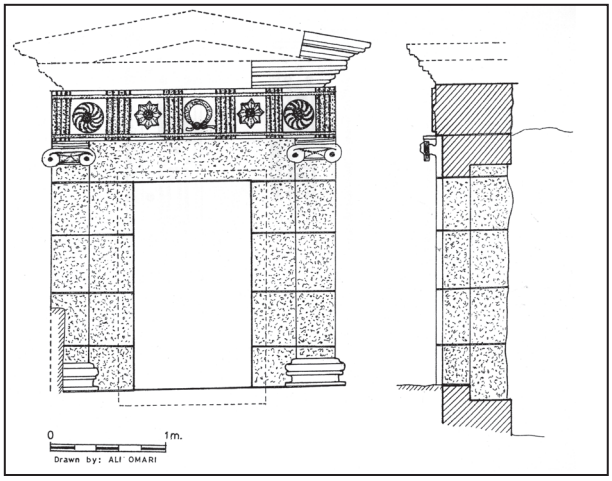

الشكل ٥-أ: واجهة مدخل لمقبرة من أم قيس

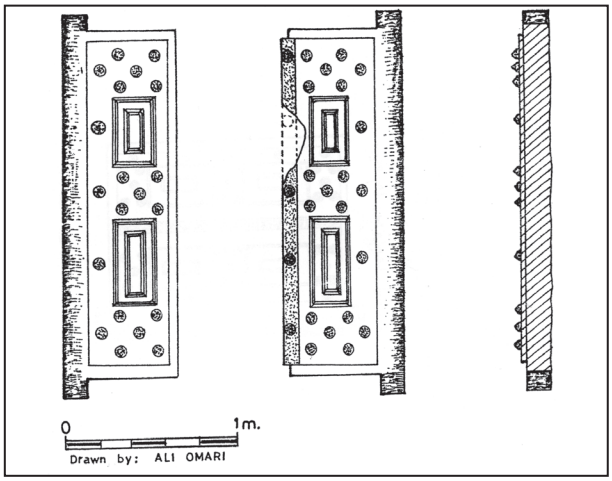

الشكل ٥-ب: باب مقبرة في أم قيس

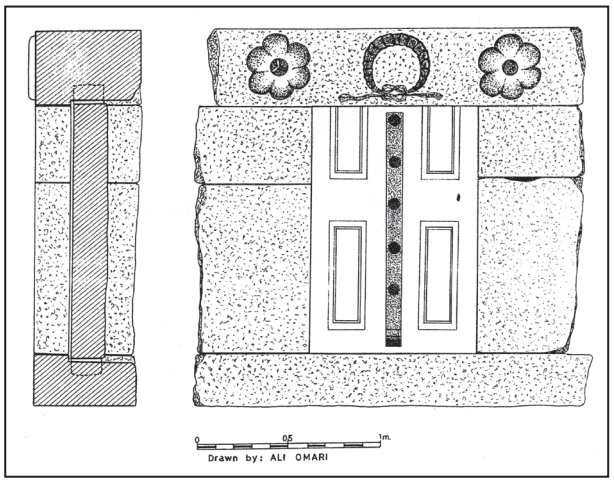

الشكل ٤: واجهة مدخل لمقبرة من أم قيس مع الباب

وثمار الشجر التي يتغذى عليها الإنسان، فكان تعظيم الطبيعة بمظاهرها الملموسة تعظيما غير مباشر للمرأة. وعندما اكتشف الإنسان البر (القمح) من بين النباتات التي كان يتغذى عليها حين كان يجمع الطعام، وبدأ الخبز الذي أعدته المرأة آنذاك يدخل في نظامه الغذائي، ثم لم يلبث أن تحول الاستقرار النسبي إلى استقرار دائم بعد أن عرف ذلك الإنسان الزراعة، وجد في الأرض خصائص عرفها أيضاً في المرأة التي تحبل بالاطفال كما تحبل الأرض بالبذور التي تعود لتستنبت فيها من جديد، فهي مصدر الخيرات اللازمة للحياة، وهكذا المرأة... وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقولة تعالى ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ البقرة/٢٢٣.

ومن فضائل المرأة أن أساطير الشعوب القديمة نسبت إليها اكتشاف النار بعد أن قبست شعلتها الأولى من القمر (Harding 1976:129f)، السواح ١٩٨٦: ١٢٨). وأنها بذلك تمكّنت من تحويل الطعام النيئ إلى طعام ناضج، وهي بهذه النشاطات وأمثالها تكون قد نقلت خلالها الأشياء من حال إلى أخرى أنفع للناس من سابقتها، فكان هذا النقل في ظاهره كأنه ضرب من السحر.

أما جسمها فهو الآخر يعمل بطريقة أقرب لفعل السحر أيضاً من خلال دورتها الشهرية المنتظمة في ثمانية أو تسعة وعشرين يوما كدورة القمر. إن كل هذه النشاطات وهذه الصفات الملموسة للمرأة جعلت الإنسان القديم يعتقد أن وراء كل ذلك أنثى كونية خفية اصطلح على تسميتها الأم

اللوحة ٢: بوابة مقبرة أم قيس

الكبرى، كان ذلك في حقبة مبكرة من العصر الحجري القديم عندما لم تكن الكتابة قد عرفت بعد (محيسن ١٩٨٧: ٢٣٧).

أما في عصور الكتابة فقد سمى الكهنة الأم الكبرى أسماء متعددة، لكنها تصب في النهاية في ذات واحدة، هي ذاتها الالهية التي أعربوا عنها برموز خاصة مهابة منها واجلالا لها. ومن هذه الأسماء التي صارت للآلهة الأم في العهد الزراعي وعصر الكتابة الذي يليه: الآلهة نمو السومرية (آلهة البدء والمياه الأولى)، وان – نانا (آلهة الطبيعة والخصب والدورة الزراعية)، وعشتار الأكادية البابلية والآشورية المقابلة لان – نانا السومرية، وهي عند الكنعانيين «عناة» وعشتروت التي كانت منتشرة في سوريا وفلسطين، وجعلت مطابقة لافروديت وهيرا وسيبيل (فرزات ١٩٩٢: ٥٧)، وفي مصر «نوت» و«ايزيس» و«هاتور» و«سيخمت»، وعند الاغريق «ديميتر» و«جيا» و«رحيا» و«ارتميس» (Guthrie 1955:110-112) وفي آسيا الصغرى «كوبابا – سيبيل»، وفي روما «سيريس» و«ديانا» و«فينوس»، وفي جزيرة العرب هي «اللات» و«العزى» و«مناه» (Vermaseren 1977: 21-22؛ السواح ١٩٨٦: ٢٧) أسماء متنوعة لآلهة واحدة هي الأم الكبرى وهذه هي أسماؤها التي تسمت بها في عصور الكتابة: عصور تدوين الأساطير الموروثة مشافهة عن السلف الأول الباليوليثي!!

ولما كانت هذه الآلهة بصفاتها وأسمائها السابقة قوة خارقة تكمن وراء ظاهرة الخصب في الطبيعة والإنجاب في الإنسان والحيوان، لم يكن للانسان بد من نقلها من مواقعها في الخيال إلى العالم الذي يعيش فيه ليحتفي بها وتقدم لها القرابين اللازمة في العلن، وكانت أداته الفاعلة لتحقيق ذلك ما أجمع عليه الباحثون باسم «الأسطورة»، التي من خلال رموزها يتكلم التراث، وتتم الاجابة من خلال تجسيدها عن اسئلة كثيرة تتعلق بهذا الوجود لم يجد لها ذلك الإنسان تفسيرا (الدباغ ١٩٦٧: ١٠٣).

ومن المفيد أن نذكر أن الإنسان عندما جسد تلك الآلهة بشكل خاص وباقي الآلهة بشكل عام لا بد أنه استفاد من طبيعته البشرية، الذكرية منها والأنثوية، فكان من الطبيعي أن يلاحظ أن الإنجاب وإخصاب الحيوان والأرض إنما مردّه إلى قوى الخصب الخارقة، التي تمثل المرأة والأرض جانبها الأهم في حياته، وكان طبيعيا أيضاً أن ينسب ظاهرة الجفاف في الطبيعة وما يصحبها عادة من اصفرار النباتات والزرع – الناجم عن اشتداد الحر وغياب الأمطار– إلى موت آلهة الخصب، مستلهما هذه المعاني – على الأرجح – من حياته هو وموته هو بعد ذلك. ولا شك أنه لاحظ أن الخضرة – بشكل عام – تختفي مدة في وقت معين من السنة ثم لا تلبث أن تعود للظهور مرة أخرى، وفي مدة معينة أخرى وعليه فقد انقسمت الحياة عنده إلى عالمين: عالم ما قبل الموت، علوي، تستمر فيه الحياة على الأرض بمعناها الواسع كما تعيشها المخلوقات، وعالم ما بعد الموت، سفلي، تموت فيه الحياة ولكن إلى حين، وقد سمى السومريون هذا العالم تسميات عدة من أشهرها

اللوحة ٣: بوابة من أم قيس

«أرض اللارجعة» التي تنزل إليها روح الأموات على اختلاف طبقاتهم وتبقى محتجزة هناك أبد الدهر. والعالم الأسفل هذا في نظر كل من السومريين والبابليين مكان مظلم يقع تحت الأرض، حصين يقع خلف سبعة جدران عالية، وله سبع بوابات عليها حراس غلاظ شداد، ما أن يقترب القادم من البوابة الأولى حتى يعلن البواب اسمه لتسمعه «ارشكيجال» ملكة ذلك العالم، ثم يقاد عبر البوابات السبع، وعليه عند كل بوابة أن يتخلى – وفقا للقوانين المعمول بها هنالك – عن شيء من متاعه، إلى أن يمثل عاريا أمام ارشكيجال وبطانتها السبع وهم كبار آلهة العالم الأسفل لتقرير مصيره في عالم الأموات (السواح ١٩٨٩: ٢٧٧–٢٧٨، عبدالواحد ١٩٨٩: ٣٤٢–٣٤٣، ٣٤٨)، وهكذا فعل بانانا/ عشتار وقت نزولها إلى ذلك العالم.

إن اصفرار نبات الأرض والزرع والخضرة وموتها بشكل عام فسر قديما بأنه يمثل نزول آلهة الخضرة انانا/عشتار إلى العالم الأسفل – عالم الأموات – وذلك في فصلي الخريف والشتاء، وإن عودة الأرض لتصبح مخضرة من جديد هو في نظرهم يمثل عودة هذه الآلهة إلى العالم الدنيوي – العالم العلوي – وذلك في فصلي الربيع والصيف.

ولعل من أبرز النصوص المسمارية الكثيرة التي تحدثت عن العالم الأسفل تلك التي تتحدث عن نزول انانا/ عشتار إليه بنسختيها السومرية والبابلية، وكذلك أسطورة جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل»، وكان النزول إلى ذلك العالم يتم دوما عن طريق بوابات سبع نسبت اليه، ولعل في ذلك تذكيرا بالبوابات التي يكتب فيها هذا البحث وما نحت عليها من رموز دينية.

كان لعودة الحياة إلى النباتات والزروع والاشجار بعد موتها، وملاحظة الإنسان لعودة الشمس والقمر والنجوم إلى الظهور بعد اختفائها، فضلا عن تعاقب الليل والنهار، الأثر الأكبر في حفز ذلك الإنسان للبحث عن بلسم شاف، يعيده هو الاخر إلى الحياة بعد موته، فكانت عودة حياة هذه الظواهر المشار إليها آنفا مبررات ملموسة استعان بها كهنة العهد الزراعي للتأكيد على أن وراء حياة تلك الظواهر قوى خفية، يجب تشخيصها والتقرب إليها بطقوس مختلفة، كي تسهم في إحياء الموتى من المخلوقات بقدراتها الهائلة التي لمسها الإنسان وشاهدها في عودة النباتات والكواكب إلى الحياة من جديد. وهكذا ظهرت أساطير انانا/ عشتار على مسرح الأحداث في بلدان الشرق القديم عامة، وبلاد اليونان بتجليات وأسماء مختلفة، وهي مسلحة بكل تلك البراهين لاثبات صحة تشخيصها وأهمية التقرب إليها من أجل إعادة الحياة للموتى من البشر. ولقد عمل القرآن الكريم على محاربة هذه المعتقدات بشدة كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ الأنبياء ٣٣.

ان الاسم انانا/عشتار، إذاً، هو تشخيص للقوى الخفية السحرية التي تكمن وراء حركة الحياة بمعناها الواسع، وقد بلغ من قدراتها أن سُمِّعَتها كآلهة شافية وصلت إلى أقطار بعيدة عن موطنها الاصلي في بلاد الرافدين، كما يتضح من رسالة الملك الميتاني «توشراتا» إلى الملك المصري امنحوتب الثالث، التي ورد فيها أنه مرسل إليه تمثال «السيدة عشتار» سيدة السماء لتحفظه وتشفيه من مرضه (ساكس ١٩٧٩: ٩٥، ٣٨٨، عبدالواحد ١٩٨٩: ١٩٩).

ولقد ترسمت المرأة بسبب قضائها وقتا طويلا في البحث عن الجذور والأعشاب الصالحة للأكل في حقبة جمع الطعام الأولى خطى الآلهة الأم الأولى انانا/ عشتار فيما بعد فتعلمت – وبوحي منها – خصائص الأعشاب التي لها قدرة سحرية على شفاء الأمراض فكانت هي الممثلة لتلك الآلهة الشافية في المحس (Heyob 1975:44)، السواح ١٩٨٦: ١٤٠، ٢٤٧).

تفسير الرموز المنحوتة على البوابات

من القرائن المهمة التي تسعف الباحث في تفسير هذه الرموز، أماكن هذه البوابات، فقد لوحظ أنها جميعا مداخل لمقابر كهفية في شمالي الأردن في: هام وأم قيس والقويلبة (الخريطة رقم ١)، وهو الأمر الذي يحمل على الظن أن هذه البوابات والرموز المنحوتة عليها لم تكن لغرض حماية الميت من عبث العابثين، مثلا باتخاذ بوابات كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فحسب، أو أنها كانت لغرض زخرفي كما يمكن أن يظن المرء إذا رأى مثل تلك الأشكال المنحوتة عليها، بل

لا بد أن لهذه البوابات وتلك الأشكال معانٍ دينية تنفع الميت في حياته الأخرى، وتحميه من الأخطار التي تعرض له فيها، ولو كان الأمر غير ذلك لما عرفنا السبب الذي بذل من أجله نحات تلك الحقبة ذلك الجهد الكبير في تجهيز تلك البوابات، وتغطية سطوحها بهذه الأشكال المنحوتة باتقان، خاصة إذا ما تذكرنا أن الحجارة البازلتية الصلبة هي مادة تلك البوابات، وأن الادوات المستعملة في النحت انئذ كانت بدائية.

وقد عرف عالم ما بعد الموت في أساطير الشرق القديم وبلاد اليونان بأنه العالم السفلي أو عالم الجحيم أو بيت هاديس، الاله اليوناني الذي يحكم ذلك العالم في اعتقادهم (الخطيب ١٩٩٩: ٤١)، وبالنظر إلى هذا، قد نرى أن هذه البوابات والمقابر التي خلفها تشكل الحد الفاصل بين العالم الدنيوي الذي نعيش فيه وبين العالم السفلي أو عالم الجحيم المظلم بيت هاديس الذي يرقد فيه الأموات، وهي مع المقابر وبهذه الصفة إذاً تعد الوسط الذي ينقل الميت إلى ذلك العالم ليولد فيه مرة أخرى، مستلهمين ذلك ربما من ولادة الأم بعدها الوسط الناقل لطفلها من عالم الغيب اللامرئي وهو الرحم، إلى العالم الدنيوي المرئي الذي نعيش فيه، وكما أن الأم مزودة خلقيا إلى جانب الرحم بضرورات أخرى يحتاج إليها لمساعدة الطفل على الحياة، ولدرء الأمراض عنه كالثديين وما فيهما من لبن مثلا؛ كذلك البوابات زودت فيما نرى بأشكال منحوته على سطحها يحتاج إليها لمساعدة الميت في حياته الأخرى، وتطرد عنه الأرواح الشريرة، وكل ما يمكن أن يتهدده في حياته تلك. فلا بد أن تكون تلك الأشكال إذاً رموزا لآلهة خفية لها تلك القدرة على حماية الميت في عالمه السفلي. ثم يتكرر العمل، ولادة وحياة، ثم موت ثم ولادة وحياة من جديد، وهكذا، حتى النهاية على هيئة دوامة كونية تجعل حركة الحياة مستمرة، ما يذكر شكل الدوامة أو الزوبعة المنحوتة على العتب العلوي لواجهة مقبرة أم قيس (شكل ٥أ)، هذه المقبرة وهي مغارة من الداخل، ربما تحاكي المغارة المقدسة التي تقول الأسطورة إن أربابا خلقوا آدم من طينها ونفخوا فيه الحياة المستلهمة من الروح الالهية للأم الكبرى (داوود ١٩٩٧: ٢٥٢).

إن المتدبر لهذه الأشكال التي ظننا أنها رموز الهية، مدرك لا محالة أنها ذات صلة بالآلهة أن – نانا السومرية/ عشتار الاكادية البابلية والآشورية، وأنها ترتد في أصولها إلى الآلهة الأم الكبرى في عهودها الأولى الباليوليثية والنيوليثية. ولكي تكون الرموز هذه أحسن تفسيراً لا بد من الرجوع إلى تلك الاحقاب للبحث عن الأسباب التي أدت إلى الاعتقاد بوجود هذه الآلهة، وعن ذلك الفعل الذي فعلته بذاتها أو برموزها بين آلهة الشرق القديم وبلاد اليونان عامة، والعراق وبلاد الليفانت (Levant) خاصة.

إن النظر إلى البوابات والرموز المنحوتة عليها، والرجوع إلى المراجع والأبحاث التي كتبت في الرموز الدينية يسلم إلى أن هذه الرموز الوارد ذكرها في الوصف في المقدمة جميعا من هذا البحث خاصة، بالآلهة انانا/ عشتار المشار إليها آنفا، فمن صفات الأم الكبرى الباليوليثية أنها «سيدة البوابات.. لها ترفع الابتهالات يوم الظلمة ملتهمة أجساد الموتى Neumann 1974: 160)، السواح ١٩٨٦: ٢١٨). ولما كانت هذه الصفات قد انتقلت إلى انانا/ عشتار الينوليثية، بحيث أصبحت بذاتها تعرف بلقب «البوابة المظلمة الفاغرة فاها لالتهام جثث البشر» فلا غرابة إذا أن نجد البوابات قد توشحت برموز هذه الآلهة تأكيدا على حضورها بتجسيم صفة من صفاتها العديدة، وهي صفة أنها «البوابة رحم الأم الكبرى» الذي يطلق إلى الدنيا شتى مظاهر الحياة كلما أهل القمر الجديد، وهي بوابة الغرب التي يدخل منها الأموات إلى عالم الظلمات، العالم الأسفل، مع هبوط القمر درجات موته السبع، وهي الأيام السبعة الأخيرة التي يتناقص فيها القمر حتى يغوص في عالمه الأسفل ليعود من جديد عبر درجات موته السبع نفسها (السواح ١٩٨٦: ٢١٦) وهكذا كان عدد بوابات الجحيم سبعا.

عدت الزهور بشكل عام بما في ذلك تلك الممثلة على البوابات التي نتحدث عنها وزهور الخشخاش بشكل خاص (داوود ١٩٩٧: ٤٤١) من الرموز التقليدية للآلهة عشتار، ربما لارتباط تفتح تلك الزهور بفصل الربيع، فصل الخصب، فاننا نرى أنها مثلت متفتحة على واحدة من أشهر بوابات بابل الكلدانية، وهي البوابة الشمالية الغربية، التي عرفت باسم «بوابة عشتار قاهرة أعدائها» أيام الملك نبوخذ نصر

(Nabuchadnesser) الكلداني (عبد الواحد ١٩٨٦: ٧٩). وما عيد النيروز الذي يعني الزهر أو الأزهار إلا عيد الأم الكبرى عشتار الذي من أسمائه في الساحل السوري «عيد الزهورية» وفي مصر «عيد شم النسيم» وما يزال ممتدا إلى يومنا هذا باسم «عيد الام» (داوود ١٩٩٧: ٤٦٤).

وظهرت الزهرة أو الزهرتان رمزا للآلهة عشتار في حقبة نشوء الحياة الأولى، كما أن من رموزها أيضاً زهرة اللوتس، وتظهر الآلهة وقد ازدان ثوبها بكل أنواع الزهر استعدادا لاستقبال عشيقها تموز بعد عودته من العالم الأسفل، ذلك الزهر الذي ينمو في جبال عشتار المقدسة (داوود ١٩٩٧: ٤٣٥-٤٣٦، ٤٦٣، ٤٦٨؛ الخطيب ٢٠٠٢: ١٨٩). وللتأكيد على علاقة هذه الآلهة بالأزهار نجدها وقد نحتت على هيئة تمثال نصفي لامرأة وضعت بين زهرتين على العتب العلوي الذي يعلو بوابة مقبرة هام (الشكل ١)، وهذا يذكر واحدا من رموز عشتار، وهما الزهرتان من جهة، ويذكر أيضاً واحدة من تجليات عشتار في بلاد اليونان، وهي الآلهة افروديت (Aphrodite)، وما يسمى بالنعم الثلاث المسؤولات عن تفتح الأزهار والبراعم في الربيع ونضج الثمار في الصيف من جهة أخرى (السواح ١٩٨٦: ٢٤٩).

الرموز على بوابة مقبرة هام

تجدر الاشارة إلى أن بوابة مقبرة هام تحمل كما ذكرنا آنفا إلى جانب الأزهار رمزين اخرين من رموز عشتار اشتهرت بهما كثيرا هما: الأفعى والمشعل.

اما عن الأفعى أو الحية فقد جذب نظر الإنسان القديم تغييرها جلدها بجلد اخر، ولانه كان في فصل الربيع من السنة فقد فسر ذلك على أنه تجديد لحياتها كلما نال منها الهرم تماما كما النباتات والأزهار عادت فجددت حياتها من جديد في هذا الفصل، وهكذا أصبحت الأفعى بهذه العادة التي التقت بها مع عودة مظاهر الخصب في الطبيعة، وفي فصل معين من فصول السنة، رمزا آخر من رموز الآلهة عشتار الخضراء، روح الخصوبة. (السواح ١٩٨٦: ١١٦ وما بعدها، داوود ١٩٩٧: ٤٣٦، ٤٣٩).

وتملك الأفعى - إلى جانب ما مر قريبا سر الحياة الأبدية، فهي التي سرقت نبات خلود البشر من جلجامش الذي سماها أسد الأرض، بعدما أتى به من أعماق المحيط بعد عناء شديد (ساكس ١٩٧٩: ٤٦٠) كما تتحدث عن ذلك الأسطورة السومرية، وبذلك ظل الموت مقدرا على الناس جميعا (عبد الواحد ١٩٨٩: ١٦٢ -١٦٤)، وتتأكد صلة الآلهة عشتار بالأفعى عندما تصفها النصوص البابلية بأن جسمها مغطى بالحراشف التي هي كحراشف الأفعى (السواح ١٩٨٦: ١٣٥ -١٣٧، الخطيب ٢٠٠٢: ١٢٣).

وتنهض الأفعى رمزا لعشتار الشافية، كما يبدو من نصوص تؤرخ إلى ما بين ٧٢١-٤٥٣ق.م في بابل وآشور وعند الحثيين إذ يرد «إذا سقطت حية على سرير رجل مريض، سيشفى ذلك الرجل المريض » (ساكس ١٩٧٩: ٥٣٠-٥٣١)، وقد بلغ من قدرتها على الشفاء أنها تحيي الموتى وتحميهم، كما فعلت ايزيس (Isis) المصرية وهي عندهم شظية من شظايا عشتار الشافية التي تطايرت في بلدان الشرق القديم بخاصة، وبلاد اليونان والغرب بعامة: لقد مزجت ايزيس لعاب رع (Ra) إله مصر الكبير بالطين فنتج من ذلك المزيج حية نفخت فيها ايزيس الحياة، تماما كما نفختها في أشلاء اوزيريس (Osiris) زوجها، البالغة أربع عشرة قطعة (عدد أيام تناقص القمر)، وأرسلتها في طريق رع عند شيخوخته فعضته فلم تستطع آلهة السماء والأرض شفاءه ولكن ايزيس شفته جزاء أنه اعطاها الاسم السري الذي كان يحكم به السماء والأرض Frazer 1971:303)، السواح ١٩٨٦: ٢٦١ -٦٢).

وانطلاقا من هذه المعاني يأخذ الإله اليوناني زيوس (Zeus) أيضاً في حالات أخرى من تشكله كإله حام للبيت شكل الأفعى التي كثيرا ما كانت تتخذ رمزا للاله الحارس للهياكل والمنازل، أو أنها صورة محسة لهذا الاله، أو أنها تمثل روح الموتى تماما كما فعل الاله بعل الفنيقي عندما تصدى للشيطان بصورة أفعى، كما يبدو من تعويذتين من أرسلان طاش (حداتو)، تعودان للقرن السابع ق.م (فرزات ١٩٩٢: ٢٥١)، وربما جاء هذا الظن الأخير من كونها تنتشر كثيرا حيث توجد المقابر، وكان اليوناني عندما يجد في داره أفعى يتفاءل بالخير ويشعر بالسعادة والطمأنينة، لأنها تمثل في نظره روح زيوس الذي يكون بذلك قد بسط حمايته على أهل تلك الدار، فالأفعى عندهم مقدسة لأنها في ظنهم لا

تموت (الدباغ ١٠٦:١٩٦٧، السواح ١٩٨٩: ٣٦١، الخطيب ١٩٩٩: ٣٥).

وتجدر الاشارة إلى أن رمز الشفاء عند السومريين كان ممثلا بأفعوانين متقابلين يلتفان على عصا، ثم انتقل هذا الرمز إلى بلاد اليونان ثم إلى الرومان الذين سمي عندهم «الكاديكيوس»، وظل إلى الان رمزا للطب في جميع أنحاء العالم (السواح ١٩٨٦: ١٥٣ شكل ٥٦-٥٧)، ولعل في ذلك تفسيرا للكأس المرسومة على أبواب الصيدليات هذه الايام، والأفعى التي تلتف حوله ورأسها عند الفوهة: الكأس هو عشتار تعويضا عن إنائها الفخاري أو جرتها المقدسة، جسد الأم الكبرى، والحية هي حيتها جاءت بديلا عن حضورها الشخصي كآلهة شافية (السواح ١٩٨٦: ٤٨، الشكل ٥٨، داوود ١٩٩٧: ٤٣٩-٤٤١)، فالأفعى المنحوتة على بوابة هام إنما نحتت إذاً للاعتقاد بقدرتها - نيابة عن عشتار - على حماية الموتى وبعثهم من مراقدهم.

الأفعى والقمر

ولعل الصفة المشتركة بين الأفعى والقمر هي التي جعلته هو الآخر رمزا من الرموز المقدسة لعشتار. فهو ينضو جلده القديم في نهاية طوره المتناقص ليظهر بجلد جديد في طوره المتزايد أول الشهر. وتتأكد صلة عشتار بالقمر من خلال التشابه بينه وبين المرأة، فدورة القمر وضوءه ينتجان عن تتابع الفصول وانعاش الزرع في اعتقادهم خاصة في فصل الربيع، وهو يمر في أطوار ثلاثة: الهلال، ثم يتزايد شيئا فشيئا حتى يصير بدرا، وفي هذا الطور المتزايد يزرع الناس حقولهم، ثم يبدأ بالتناقص حتى يصير العرجون شبه الهلال قبل انمحاقه، وقد اسند القرآن الكريم هذه الظاهرة إلى الله وحده في قوله تعالى (والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) يس ٣٩؛ ثم يغوص بعدها في أعماق الظلام، أعماق العالم الأسفل، وفي هذا الطور يتوقف الإنسان عن الزراعة وعن جميع الأعمال، وبعد غيابه لمدة ثلاثة أيام، تظهر قرونه (طرفي الهلال) في اليوم الرابع مبشرا بميلاد آخر للشهر لذلك رُمز إليه بثور (داوود ١٩٩٧: ٤٤٧، خزعل ١٩٩٨: ٣٧). إنها حركة طبيعية أشبه ما تكون بالحركة الطبيعية داخل جسد المرأة في دورتها الشهرية البالغة ثمانية وعشرين أو تسعة وعشرين يوما، وهي عدد أيام الشهر القمري. فالأم القمرية إذا مسؤولة عن الحياة وعن الموت معا، فهي تأخذ في طورها المتناقص ما أعطته في طورها المتزايد، وهي تعطي الخصب وهي التي تمنعه تماما كرمزها الأفعى القاتلة والشافية في آن واحد؛ ما يذكر بحية موسى عليه السلام التي لدغت بني اسرائيل لقاء كفرهم بالله - عز وجل - فماتوا، ثم أعيدوا إلى الحياة بحية من نحاس صنعت لهم في سيناء، لعلهم يرجعون عن كفرهم (السواح ١٩٨٦: ١٤٠، ٢٤١، ٢٤٧).

ومن الطريف أن نذكر هنا أن التكوين الجسدي للحية يسمح بقسمتها إلى قسمين: القسم الأوسط وهو جيد صالح للأكل كما يروي ذوو التجربة، بينما الرأس والعنق غير صالحين، لما يحتويانه من السموم القاتلة؛ فهي مفيدة وضارة حتى في تكوينها الجسمي!!

ومنهم من قسّم القمر إلى أربعة أطوار، أي أربعة أسابيع، فصار بذلك أساسا للحساب (داوود ١٩٩٧: ٤٤٥). قال تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) البقرة ١٨٩، والقمر عند غير العرب كان في أول أمره أنثى وصوّر بثلاثة أوجه: هلالا للأنثى الشابة، وبدرا للمرأة الناضجة (Mature)، ومحاقا للمرأة المسنة العجوز (زكي ١٩٧٩: ٥٣-٥٤)، وهو بطبيعته متقلب المزاج، يغوص عند المغيب في الغرب، وربما يطلع اول الليل أو في منتصفه أو آخره، أو انه لا يطلع البتة تاركا السماء في ظلام، أو يظهر في وسط السماء بينما تملأ الشمس بنورها أرجاءه. وهكذا المرأة، محكومة بايقاع القمر، فهي قبل الحيض غيرها اثناءه وغيرها بعده، وهي قبل الحمل غيرها اثناءه وهي غيرها بعد الولادة، فهي تغدو أما دائمة. ومن الطريف أن نذكر أن قدماء العراقيين عدوا القمر في طور البدر يوما تحيض فيه الآلهة عشتار، فتستريح من كل أعمالها، ودعوا هذا اليوم «السباتو» أو شبتو (داوود ١٩٩٧: ٤٤٤)، أي يوم الراحة، يحتفلون به مرة في كل ربع من أرباع الشهر القمري. ويبدو أن اليهود قد أخذوا هذه العادة يوم أن كانوا أسرى في بابل عام ٥٨٦ق.م فجعلوا يوم السبت هو اليوم السابع وعدوه يوم «راحة للرب يستريح فيه من عناء الخلق» Harding 1976: 62)، ساكس ١٩٧٩: ٤٠٧ السواح ١٩٨٦:

٧٥).

يتضح مما سبق أن عشتار إذاً تتجلى في المحس بالقمر في السماء، كما تتجلى في خصب الطبيعة على الأرض، فعندما يهبط القمر من الأعلى العظيم (السماء) على مراحل (السبعة أيام الاخرة من عمره) إلى الأسفل العظيم – عالم الظلام (السواح ١٩٨٦: ٦٢، ١٩٨٩: ٣٣٢، ٣٤١)، يكون بحركته تلك قد مثل في المحس المرئي، حركة آلهة غيبية هي سيدة السماء عشتار وهبوطها نحو العالم المظلم، وعندما يموت الخصب في الطبيعة على الأرض يكون في ذلك تمثيلا في المحس المرئي أيضاً للنزول الغيبي لعشتار إلى العالم الأسفل المظلم واختفائها فيه إلى حين، وكما عبر القمر، عشتار السماوية، ملكة السماء، إلى العالم المظلم درجات موته السبع، تعبر عشتار الأرضية سيدة الطبيعة، درجات موتها السبع أيضاً إلى العالم الأسفل من خلال تجسيد أيام القمر السبعة الاخرة بسبع بوابات على الأرض، عرفت في بلاد ما بين النهرين باسم «بوابات الجحيم» أو «بوابات العالم الأسفل»، وهي التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ الحجر ٤٣-٤٤. وكما يكون القمر في يومه السابع من الربع الاخر من طور المحاق لا يزال مرئيا فلا بد أن تكون واحدة من البوابات السبع على الأرض مرئية مثله أيضاً، بخلاف البوابات الست الباقية غير المرئية، التي تمثل اختفاء القمر تماما من السماء مساء اليوم الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين من الشهر القمري.

وهكذا، كانت البوابات التي ندرسها هنا مرئية لأنها تمثل البوابة الأولى التي تعبر منها عشتار القمر، عشتار الطبيعة درجات أو بوابات موتها السبع إلى العالم الأسفل المظلم، تماما كما هي الحال في بوابة عشتار الكلدانية المرئية لهذا السبب في بابل. إن تناقص القمر قطعة قطعة إلى أن يختفي في عالم الظلام – العالم الأسفل – قد شكل شخص الآلهة عشتار التي تنضو قطعة من ملابسها عند كل بوابة من البوابات السبع، إلى أن تمثل عارية امام اختها ارشكيجال آلهة العالم الأسفل التي يحيط بها الأنوناكي السبعة والذين تحولت انانا/ عشتار وبكلمة منهم إلى جثة هامدة (عبد الواحد ١٩٨٦: ١١٤-١١٥) شدت إلى وتد مغروس ثلاثة أيام وثلاث ليال، وهي المدة الطبيعية لاختفاء القمر المشكل لهذه الآلهة في المحس كما مر قريبا.

إن تساقط أوراق الشجر وذهاب الخضرة من الطبيعة بالتدريج في فصلي الخريف والشتاء يجسد هو الآخر غياب هذه الآلهة المسؤولة عن الخصب في الطبيعة بمعناه المطلق، ولما كانت هذه الخضرة وأوراق الشجر لا تعود إلا بعد أن ترتوي الأرض بمياه المطر في الشتاء فقد مضت الأسطورة لتغطي العودة الطبيعية لمظاهر الخصب هذه وكذلك عودة القمر بصفته المسؤول أيضاً عن تعاقب الفصول وإنعاش الزرع، فشكلت هذه الظواهر الطبيعية على شكل رواية لها أبطال ذوو صفات بشرية: إن ماء المطر اللازم لري التربة حتى تنبت البذور فيها من جديد ويرتوي الشجر لتعود إليه الأوراق أيضاً شكل باله عرف باسم انكي (Enki) وشخص إلى الآلهة عشتار وزير إمرته إن هي لم تعد في اليوم الثالث من غيابها أن يذهب إلى كبار الآلهة يستحثهم ليسهموا باعادتها إلى العالم الدنيوي، ولكن لم يستجب لهذا الوزير من الآلهة سوى انكي الذي خلق من مادة قذرة أخذها من تحت أظفار يده مخلوقين، لأنه لا يسمح للأطهار في اعتقادهم بالنزول إلى العالم الأسفل حيث حبست عشتار، فأعطى لأحد المخلوقين طعام الحياة (الذي نظنه السماد) وأعطى للآخر ماء الحياة (الذي هو مياه الري على الأغلب)، وأمرهما بالنزول إلى العالم الأسفل، وهناك نثرا من طعام الحياة ومائها على جسد الآلهة ستين مرة، فعادت إلى الحياة من جديد. ولست أدري أن كان يعني بالستين مرة عدد أيام تساقط الأمطار في فصلي الخريف والشتاء ؟! وفي طريق عودتها من عالم الأموات الأسفل مرت بالبوابات السبع التي دخلت منها، فكان يعاد إليها عند كل بوابة ما سبق أن نزع عنها، فكان تاجها آخر ما رد إليها وهي تعبر البوابة الأولى (المرجع السابق، ص١١٨)، ويتأكد وجود هذا المعتقد بتدبر بعض آي القرآن، فإنه سفّه اعتقادهم هذا وحمل عليه في مثل قول الله تعالى «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» الأنعام ٥٩.

ويبين من نص سحري متعلق بالأمراض والعلل أن عشتار وردت فيه بديلا عن القمر حيث جاء فيه «إذا حولته (المريض) يد الآلهة عشتار إلى الصرع فان ذلك يدل على يد الاله سن (Sin) القمر» (ساكس ١٩٧٩: ٥٣٥).

وانتقلت هذه التصورات الأسطورية السابقة إلى الربط بين الأفعى والمرأة أيضاً، إذ عبر عن هذا المعنى بتمثال لأفعى جاء على شكل أنثى عثر عليه في كريت في العصر المينوئي، فالأفعى كانت في أصلها امرأة، والمرأة كانت في أصلها أفعى (الدباغ ١٩٦٧: ١٣١، السواح ١٩٨٦: ١٣٦) ومن الطريف أنه لا تزال توصف المرأة الماكرة في مجتمعاتنا المعاصرة بأنها حية والمرأة هي عشتار كما قلنا، والحية هي رمزها الحامي والشافي وباعث الموتى من مراقدهم نيابة عن الآلهة المقدسة.

اما الرمز الاخر على بوابة هام وهو المشعل (torch) فهو من الرموز العشتارية المهمة كذلك، فمنذ أن أفرزت عشتار من ذاتها قوة الذكورة صار الذكر ابنا لها عاجزا عن أي قدرة على الإنجاب إلا من خلالها، مشدودا إليها برغبة جامحة دعيت ب «الحب» هذه الكلمة التي تعني في قواميس اللغة العربية القديمة السريانية والفينيقية: (اتقاد، اشتعال، اضطرام)؛ وانظر إلى قرب مخرج الحاء من الهاء وعلاقة حب وهب.. ونار ذات لهب. إن الخيط غير المرئي الواصل بين الذكر والأنثى يمثل الرغبة الحارة، الحب، الاشتعال اللازم لحدوث أي اتحاد بينهما في الطبيعة؛ ومن هنا كان دائما اقتران الحب في اللغة العربية بالنار، فيقال (حبك نار)، فكما توقد النار بالاحتكاك كما في عود الثقاب مثلا، أو احتكاك خشبة بأخرى أو حجر صوان بحجر آخر فإن الحب كذلك، وهو في النتيجة اتقاد واشتعال يحدث طاقة، والحب في ذاته رغبة جذوة أو شعلة وهكذا كانت عشتار ربة الشعلة أو الجذوة (الرغبة الجنسية) حسبها أن تطل لتوقد جذوة الحب في كل مخلوقاتها البشرية والحيوانية والنباتية (داوود ١٩٩٧: ٣٧٠-٣٧١) فهي لذلك سيدة الطبيعة.

إن شعلة الحب أو جذوته العشتارية هي أصل كل خصب وتكاثر، بما في ذلك بقاء الجنس البشري وخلوده، فظلت بذلك رمز البقاء واستمرار الذرية، لذلك قدست هذه بتمثيلها «بجذوة» أو «شعلة» يجري الابقاء عليها مشتعلة، حتى أصبحت في آخر تجلياتها «شعلة» متقدة عند اضرحة الشهداء الذين يقتلون أو يقضون نحبهم دفاعا عن اوطانهم، تعبيرا عن خلودهم عند ربهم في جنان الحياة الأخرى.

وكما تجمع النار العائلة حول موقدها، تجمع الأم عشتار العائلة حولها، لأنها هي رمز وحدتها، ومركز جذبها. لذلك حرص الإنسان القديم على الابقاء عليها مشتعلة لا تنطفئ لأنها قبس وبركة من الأم الكبرى، التي صورتها الأعمال التشكيلية وفي يدها المشعل تعبيرا عن كل ما أشرنا إليه من معان. ولبعث الحياة في البذور كان من دأب الزراع أن يحملوا مشاعلهم ويجوبوا حقولهم لبث روح سيدة الشعلة عشتار آلهة الخصب في الأرض، وانتقلت النار العشتارية إلى مصر الفرعونية، فكانت طقوس النار تقام في معابد ايزيس لايقاظ اوزيريس، ا لاله الميت الذي عاش على الأرض ثمانية وعشرين عاما عدد أيام القمر، ثم نزل إلى العالم الأسفل ليحكم في عالم الموتى، وكذلك انتقلت إلى بلاد اليونان فظهرت على شكل مشاعل محمولة في الرسومات التي تصور الالهات اليونانية الرومانية، أمثال ديميتر وارتيمس وبيرسفوني وديانا، التي تعني المضيئة والتي كانت تبدو في النحت أو الرسم وهي تحمل في يدها مشعلها المضئ، إشارة إلى خصائصها العشتارية وطبيعتها القمرية (السواح ١٩٨٦: ١٢٢-١٣١، الأشكال ٤٠، ٤٤، ٤٦).

وهكذا، يمكن تفسير نحت المشعل على بوابة هام بأنه يرمز إلى هذه المعاني السابقة، خاصة معنى الخلود للأموات خلف هذه البوابة، وهو رمز لعشتار يسهم في ظنهم باشتعال أرواح الموتى بالحياة من جديد، مستمدا تلك القوة السحرية من شعلة الآلهة القمرية الأولى الواهبة للحياة، الأم الكبرى الباليوليثية قديما، انانا/ عشتار الينوليثية لاحقا.

لقد حث عرب الجاهلية قوى الإخصاب في الطبيعة بالنار التي كانوا يوقدونها في حزم من الحطب ربطت بأذناب الثيران، التي كان عليها بعد ذلك أن تنحدر راكضة من قمة جبل وعر (خان ١٩٨٠:٩٧ - ٩٨)؛ فالثور رمز لعشتار القمرية المنوط بها إنبات الزرع، كما مر بنا آنفا، والنار المشتعلة بالحطب تجسد الشعلة العشتارية على الأرض، والممثلة في السماء بالبرق، ويجسد الضجيج الذي يحدثه فرار الثيران من النار المشتعلة في أذنابها صوت

الرعد، وهكذا جسدت عوامل الخصب الثلاثة: المطر والبرق والرعد في صلاة استسقاء جاهلية مرتبطة بعشتار سيدة الخصب والنماء في الطبيعة بمعناه الواسع، وظل الأمر كذلك إلى أن جاء الاسلام فنسخ هذه المعتقدات وعلم الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم الناس صلاة استسقاء بديلة.

أما شعلة عشتار المقدسة فقد طغت عليها نار بديلة عندما أظهر الله لموسى – عليه السلام – شعلة نارية في سيناء تخرج من شجرة ليأخذه من زوجه بعيدا في خلوة يكلمه بها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا، قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ القصص ٢٩–٣٠. ويرد هذا المعنى في سورة أخرى من القرآن، إذ يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى» طه ٩–١٢؛ وهذا واضح أيضاً من قوله تعالى ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأيتكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ النمل ٦–٩؛ فالنار هي نار الله الدالة عليه، والجذوة أو الشعلة هي جذوته التي تشتعل في قلوب المؤمنين بحبه وحب رسله، والحية من صنعه، قال تعالى مبينا هذا المعنى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مئارب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ طه ١٧–٢٠، وفي ذلك تأكيد على أنه – سبحانه – بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير، هو سيد الطبيعة وسيد الأرضين السبع والسماوات السبع ورب المخلوقات جميعا. يقول الله – سبحانه وتعالى – في ذلك «الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما». الطلاق ١٢. وهكذا تبدو الأرضون السبع كأنها تلغي مفهوم بوابات العالم الأسفل الأرضي، أو بوابات الجحيم السبع بمفهومها الذي اشرنا إليه آنفا، وقد ورد ذكر السماوات السبع والأرضين السبع في حديث عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتعلق بوصية نوح – عليه السلام – لابنه عندما أمره أن يعتقد بأنه «لا اله إلا الله»، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت «لا اله إلا الله» في كفة، لرجحتها كفة «لا الله إلا الله...» (العلي ١٩٩٥: ٣٩) وفي ذلك محو كامل لكل أساطير الشرك المشار إلى بعضها آنفا، التي كانت تستخدم الظواهر الطبيعية والكونية للتأكيد على صحة ما تذهب إليه من معتقدات.

الرموز على مقبرة من أم قيس

ومن الرموز الدينية أيضاً تلك التي تظهر على بوابة مقبرة من أم قيس وهي: الأعمدة التي كشكل الميتوب اليوناني، ونجمة ثمانية الزوايا، يليها إكليل من ألغاز، ثم حجارة شكلت القاعدة والتاج للعمود الأيوني المعروف بانحنائية الحلزونيين نحو الأسفل (شكل ٥ أ). وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرموز جميعا بما في ذلك الدائرة، أو ما أسميناه في الوصف الدوامة أو الزوبعة هي رموز خاصة بالآلهة عشتار: فالعمود يذكر بحزمتي قصب برأسين معقوفين ظهرتا على الأختام الأسطوانية وبعض النماذج الفنية رمزا للآلهة انانا/عشتار بدءا من نحو ٣٠٠٠ق.م، وكانتا تمثلان العمودين الجانبيين لمدخل الكوخ الخاص بطقوس خصب الآلهة انانا قبل نشوء المدن في بلاد الرافدين وبناء المعابد والزقورات فيها؛ لذلك عد العمود المقدس واحدا من رموز هذه الآلهة (حتى ١٩٥٨: ٧٠ –١٢٨؛ ساكس ١٩٧٩: ٣٨٩، ٥٦٧؛ عبدالواحد ١٩٨٩: ٢٠٧، داوود ١٩٩٧: ٤٣٩، الخطيب ٢٠٠٢: ١٨٧)، حتى لقد عد العمود رمزا لايزيس، رحدى تجليات عشتار في مصر، لأنها ظلت تحوم حول عمود في بيت ملك جبيل، كان قد اقتطع من شجرة السرخس التي يقال إنها ضمت تابوت اوزيريس بعد أن قطعه سيت (Set) اربع عشرة قطعة، عدد أيام تناقص القمر، إلى أن أعطتها الملكة ذلك العمود فعادت به إلى مصر (داوود ١٩٧٥: ١١١). ويرى كثير من الباحثين

(عبدالواحد ١٩٨٦: ٤٢، ٤٤؛ الماجدي ١٩٩٨: ٦٤، ١٠٦) أن حزمة القصب – وهي علامة صورية ومن ثم مسمارية حتى لكتابة اسم «انانا» – قد تركت أثرا بينا في تيجان الأعمدة الأيونية، بشكلها الحلزوني المعقوف، ببلاد اليونان في عصور لاحقة، وهذا ما نراه جليا على جانبي مدخل بوابة مقبرة أم قيس (شكل ٢أ) فضلا عن وجود النجمة ثمانية الزوايا شكل ٢أ-٤أ) وهي نجمة الزهرة، ألمع النجوم في السماء، والتي ظهرت في المنحوتات والأختام السامية رمزا لعشتار أيضاً، فقد كان الخدم في معبدها يميزون بوشم كشكل نجمة يوشم به الرسغ (ساكس ١٩٧٩: ٣٠٤، ٣٨٩؛ عبدالواحد ١٩٨٦: ٤٣ -٤٤؛ الماجدي ١٩٩٨: ١٠٦-١٠٧؛ الخطيب ٢٠٠٢: ١٠١).

وتدل النصوص الفلكية البابلية المؤرخة لمدة حكم عمي صدوقا (١٦٤٦-١٦٣٦ق.م) أن البابليين اهتموا برصد هذه النجمة فسموها نجمة «دلبات»، وعلموا ظهورها المتناوب عند الغروب وقبل الشروق تبعا لدورانها حول الشمس فسموها ربة المساء وربة الصباح فكانت آلهة للحب والملذات في أيام السلم، وآلهة للحرب وقت المعركة أيضاً (ساكس ١٩٧٩: ٣٨٨؛ الخطيب ٢٠٠٢: ١٠٠-١٠٢)، ومما يدل على علاقة عشتار بالكواكب أنها نحتت وفوق رأسها النجمة الثمانية على مسلة حجرية عثر عليها في تل بارسب، بأعالي الفرات، وعشتار قائمة على ظهر اسد، وقد أرخت إلى القرن الثامن ق.م، كما نراها أيضاً على ختم آشوري يؤرخ لما بين ١٠٠٠-٦١٢ق.م، يصورها قائمة على حيوان خرافي، وتحيط بها هالة من النجوم، وتحمل بيدها صولجانا، رأسه كشكل نجمة ثمانية، وفي الطرف الآخر من الختم نرى متعبدا فوق رأسه سبع دوائر صغيرة ترمز إلى مجموعة نجوم الثريا (عبد الواحد ١٩٨٦: ٤٤، شكل ١٧)، وهي بأشكالها وأحجامها تذكرنا الدوائر أو الكرات السبع الصغيرة المنثورة على السطوح الخارجية لمصاريع هذه البوابات (الأشكال ١، ٢ب،٣ب) إلا أن المساحة على سطوح تلك البوابات لم تسمح في ما يبدو بحشد الكرات السبع معا في مكان واحد، وبالترتيب نفسه الذي يحاكي ترتيب الثريا في السماء، لهذا نرى أن النحات رتبها على بوابات البحث بأساليب أخرى فرضتها مساحة سطوحها، كما يظهر من الرسم التوضيحي للأشكال المشار إليها آنفا أن هذه الكرات الصغيرة أو ما عرف من قبل بعض الباحثين باسم «دقاقات الباب» (Porte Buttons) وهي من رموز عشتار أيضاً كما أنها رمز للاله عشتر عند المعينيين من عرب الجنوب، الذي أسندت إليه أكثرية وظائف آلهة الرافدين عشتار، وكان مرتبطا بالخصب وصور في نقوش الجنوب، كهيأة نجم له ثمانية زوايا أو خيوط شعاعية كما صورت عشتار من خلال نجمتها الثمانية تماما (الخطيب ٢٠٠٢: ١١٥).

اما عن أكاليل الغار التي نشاهدها منحوتة على بوابات البحث (الأشكال ٢أ، ٤أ،٥)، فإن ذلك يعيدنا إلى فصيلة الشجر الدائم الخضرة، التي كانت ترمز إلى عشتار الخضراء، ومنها شجرة النخيل والصنوبر والبخور والمر والكندر وشجرة الزيتون البرية (داوود ١٩٩٧: ٤٣٥).

ولما كان الغار من الشجر الدائم الخضرة، ونحتت منه أكاليل على هذه البوابات نرى في ذلك مؤشرا آخر على أن هذا الشجر هو الاخر رمز من رموز عشتار الخضراء أيضاً حتى ليمكن أن يضاف إلى أشجارها السابقة، التي ترمز إلى وجودها المرئي. وتتأكد أهمية الغار عندما نراه وقد تقلده القادة العسكريون في العصور الرومانية، عندما كانوا يعودون من حروبهم منتصرين، لأنهم نالوا بذلك النصر، صفة من صفات عشتار فينوس (Venus) المحاربة والمنتصرة دائما على أعدائها، فهي ربة الحرب، تكسر قوس العدو في حومة الوغى (فرزات ١٩٩٢: ٥٧). ومن الاعتقادات السائدة حينذاك أن مضغ ورق الغار يحمي ويعطي الجرأة أمام القوى الخارقة للطبيعة (الخطيب ١٩٩٩: ٦٤)، والغار مضاد لسموم الافاعي، فهو بهذه الصفة يلتقي مع عشتار الشافية والحامية، وتتضح قدسية شجر الغار وأنه من شجر الآلهة عندما نرى عرافة الآلهة اليونانية جيا (Gea) بعد أن قتل أبولو (الاله الروماني) حيتها العملاقة، تتحول لتكون في خدمته بمعبد دلفي الذي أصبح هو الآخر وقفا عليه وحده. فكانت جيا تنطق بالنبوءات وهي قاعدة على صخرة، تمضغ ورق الغار، وفي ذلك تذكير بكاهنات عشتار العرافات اللاتي كنَّ أول من رجم بالغيب، ربما بوحي من الغار رمز عشتار الحكمة.

وقد أبطل القرآن الكريم هذه المعتقدات ومثالها، فربط علم الغيب بالله – عز وجل – في آيات كثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم غيب السماوات والأرض والله بكل شيء عليم﴾ الحجرات ١٦. وقوله أيضاً: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت أن الله عليم خبير﴾ لقمان ٣٤.

وتظهر الدوامة أو الزوبعة واحدة من رموز عشتار الممثلة على إحدى البوابات بأم قيس (شكل ٢أ)، فإضافة إلى ما ذكرنا في معنى الدوامة سابقا، إن العبادة العشتارية تمثلت أيضاً في البداية بالدوران حول المركز الذي هو صخرة في مغارة تمثل عشتار. وكان ذلك الدوران الزوبعي مصحوبا في أكثر الأحيان بالعزف والغناء والرقص إعرابا عن شهوة الجماع، رمز القدرة الإخصابية الأولى (داوود ١٩٩٧: ٢٣٧،٤٣٧، ٤٤٢) ولكن سرعان ما يتحول الراغبون في لذة الحياة عقارب رمزا للالم والموت والمصير المحزن الذي تنتهي إليه المخلوقات. وهكذا تدور الدورة، لذلك نجد عشتار قد مثلت كشكل أفعى كونية تعض ذيلها، دلالة الاكتمال الخلقي تبيينا لتلك النهاية (السواح ١٩٨٦: ١٥٨، شكل ٥٩؛ الماجدي ١٩٩٨: ١٣) وقد بيّن القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ البقرة ٢٨، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا اول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ الأنبياء ١٠٤.

معنى الدفن في مغارات كهفية مغلقة ببوابات سوداء

إن دفن الموتى في المغارات بأم قيس، المدينة اليونانية الهلنستية في شمالي الأردن، وإغلاقها بهذه البوابات يؤكد على قدسية المغارة في اعتقادهم: لقد فجّر أنكى منها ينابيع الماء العذب، وفيها الجنة التي تخرج منها الأنهار لتروي حقول «ايل» شرقي الجبل المقدس الذي يضم تلك المغارة. وقد قدّس سكان سوريا ووادي النيل تلك المغارات ذات الينابيع المزعومة، وقرنوها بالخصب وبربة الخصب وببدء الخليقة على الأرض، عندما خلقت الأرباب آدم – عليه السلام – بزعمهم من طين المغارة وزودته بنفخة من الروح الالهية، إن المغارة بهذه المعاني إذاً جنة عدن أرض الأحياء، ودار الأبرار، وإن الأرواح وحدها هي التي تذهب هناك، كانت تتفجر منها ستة أنهار: ثلاثة تتجه إلى الشرق لتروي جنة عدن، وثلاثة إلى الغرب لتروي أرواح الموتى، أهل الغرب، لذلك مثلوها بالسيدة العذراء عشتار المقدسة وهي تحمل بين يديها جرة يتدفق منها الماء، فعرفت المغارة بربة الينبوع حورانينا (اورنينا) وتعني مغارة السيدة، أو كهف العذراء، الذي لا يزال يطلق على كل كهف يتدفق منه الماء في سوريا إلى اليوم (داوود ١٩٩٧: ١١٣–١١٧، ٢٥٢،٢٩٩).

ولعل اختيار حجر الأبواب في مقابر أم قيس والقويلبة من البازلت الأسود طور القمر الثالث، المحاق عندما يغوص في أعماق الظلام مجسدا بذلك نزول انانا/ عشتار غير المرئي إلى العالم الأسفل، تماما كما جسدته العزى بخاصيتها الثالثة التي كانت ممثلة بشجرة تسكن تحتها امرأة حبشية سوداء، خرجت عارية شعثاء عندما هم خالد ابن الوليد بقطع تلك الشجرة التي كانت واحدة من ثلاث شجرات تمثل كل واحدة منها الأطوار الثلاثة لعشتار القمر (السواح ١٩٨٦: ٤٢٢). ولا يخفى أن المرأة الحبشية تجسيد لعشتار السوداء عندما تجد نفسها عارية أمام ارشكيجال بعد عبورها البوابة الاخرة السابعة من بوابات العالم الأسفل المظلم، فلون الحجر إذاً اختير أسود ربما ليبين طور عشتار المظلم، أو طورها المنير عندما يكون لون الحجر خلاف ذلك Harding 1976:41)، السواح ١٩٨٦: ٨٨–٨٩)، ولعل لون الحجر الأسود أيضاً يعيد إلى الأذهان تصور اليونانيين في أم قيس – كما كان ذلك في وطنهم الأم – وجود مملكة للأموات مظلمة تقع تحت الأرض، وإن الأرواح تنزل إليها من مداخل، منها المدخل الرئيس الذي ظنوا انه يقع في حقل لشجر الحور الأسود، عند نهر اوسيانوس (Oceanus) المحيط بالأرض (عبد الواحد ١٩٨٩: ٢١٨).

إن المستطيلات المتداخلة فيما بينها باتجاه المركز على هذه البوابات (الأشكال ١، ٢ب ، ٤، ٥ب، ٦ب) هي الأخرى من رموز عشتار، الأم الكبرى نينهورساغ في العهد الزراعي (الماجدي ١٩٩٨:٣٦)، ولعلها – في ظن الباحث – تشير إلى أبواب السماء السبعة، اذ تنتشر حولها الكرات الصغيرة المنحوتة ربما لتمثل النجوم، فعشتار هي سيدة الطبيعة كما

هي سيدة السماء وملكته. وقد حارب القرآن الكريم هذه المعتقدات في آيات كثيرة، نذكر منها قوله تعالى عن نفسه: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ الملك ٣، وقوله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾ الأعراف ٤٠.

انتقال وظائف عشتار إلى آلهة اليونان والرومان

وكما أسندت أكثرية وظائف عشتار ورموزها إلى الاله المعيني «عثتر» كما مر آنفا، نجد أن هذه الوظائف والرموز تنسب في معظمها أيضاً إلى الآلهة اليونانية» افروديت» الابنة السابعة للاله «زيوس» (الخطيب ١٩٩٩:٥٠)، والتي انبثقت كما تقول الأسطورة من خصية (اورانو) اله البحر فحملها النهر إلى البحر فأنجبت هناك نينا (Nina) روح الخصب في الماء البدئي، ومن رغوة موج ذلك البحر خرجت أجمل نساء العالمين إنها «افروديت» بنت رغوة موج البحر، إحدى تجليات عشتار، حين ساوى هيرودت أيضاً بين الالهتين في حديثه عن البغاء المقدس في بابل، عندما زارها في منتصف القرن الخامس ق.م، وهي التي عرفها الرومان باسم «فينوس». لقد كان لافروديت أيضاً وجهها الأسود، فأداتها التي تزرع بها الحب في قلوب البشر هي سهام الحب نفسها التي تصرع الحبيب وتودي به، لذلك نراها آلهة للموت عبدت باسم «افروديت المقابر» (عبد الواحد ١٩٨٦: ١٦٣؛ داوود ١٩٩٧: ٤١١ -٤١٣).

ولما كانت مدينة أم قيس واحدة من المدن العشر اليونانية المهمة التي شكلت اتحاداً فيما بينها عرف باتحاد الديكابولس (Decapolis)، وإن القبور الكهفية فيها وفي هام والقويلبة مغلقة بهذه البوابات التي مر حديثنا عنها آنفا، وانها رموز للآلهة عشتار، وان عشتار هذه ورموزها ووظائفها أصبحت هي أيضاً تنسب لافروديت، فان هذه القبور والبوابات الغالقة لها في هذه المواطن الهلنستية الرومانية تبين شكلا من أشكال عبادة عشتار، ولكن باسم جديد وثوب خارجي جديد هو «افروديت – فينوس» (Aphrodite – Venus) آلهة الحب والجمال والخصب في الطبيعة حامية البحارة، ملكة السماء.

وكما أن عشتار اقترنت بالمغارة (cave) ذات الينابيع والخصب، كانت افروديت – فينوس هي أيضاً كذلك، حيث دفن الأموات اليونانيون والرومان في مغارات بأم قيس وهام والقويلبة للتدليل على ذلك المعنى المقدس للمغارة كما يتضح من أسماء بعضهم المنقوشة باليونانية فوق مداخل بعض تلك المغائر في أم قيس، وقد أحيطت تلك الأسماء بأكاليل الغار المقدسة مثل قبر عائلة جرماني (Tomb of Germani) وقبر موديستوس (Modestus Bomb) (الأشكال ٥أ – ب، ٦أ- ب، اللوحة ٣). وافروديت هي أيضاً من تجليات ايزيس المصرية في بلاد اليونان، التي هي من تجليات عشتار في مصر كما ذكرنا، حيث تلتقي افروديت مع ايزيس في أنهما المسؤولتان عن جماع الرجل والمرأة، كما أن فينوس الرومانية كذلك وهاتور (Hathor) المصرية. فقد رأى اليونانيون في ايزيس – هاتور (Isis – Hathor) الهتهم افروديت، وقرنوا ايزيس بأفروديت التي أصبحت آلهة ظاهرة للعيان في الإسكندر ية منذ وقت مبكر، وكذلك في ديلوس وفي قرى مصرية ويونانية عديدة منذ القرن الرابع إلى نهاية القرن الثاني ق.م، وقد مثلت عارية في التماثيل، وهي تحمل صفات افروديت – فينوس التي أنجبت الذكر والأنثى والبشر أجمعين (Heyob 1975:48-49).

إن هذا التجلي لعشتار وايزيس في شخص افروديت – فينوس ليدل على الصلات الدينية والثقافية بين بلدان الشرق القديم عامة وبلاد اليونان والرومان خاصة، وقد أسهبت المصادر الكلاسيكية في شرح هذه الصلات مع بعض التفاصيل عن نظرية خلق الكون والبشر وحتى الآلهة نفسها، وجاءت المادة الرئيسية لتلك المعلومات من أجزاء بحث كتبه باليونانية الكاهن البابلي بيروسوس الذي عاش بين عام ٣٤٠-٢٧٥ق.م (ساكس ١٩٧٩: ٣٣٧)، وفي ذلك إشارة واضحة إلى عمق العلاقات الثقافية البابلية اليونانية آنذاك، والتي تشير مكتشفات الفخار إلى أنها ترتد إلى الألف الرابع ق.م، وأنها أصبحت قوية منذ بداية الألف الثاني ق.م، كما يتضح من أختام بابلية عثر عليها في جزيرة كريت تعود إلى تلك الحقبة، ومن إناء كريتي عليه مشهد حصاد يظهر فيه أبناء كريت وهم تحت إمرة موظف يرتدي

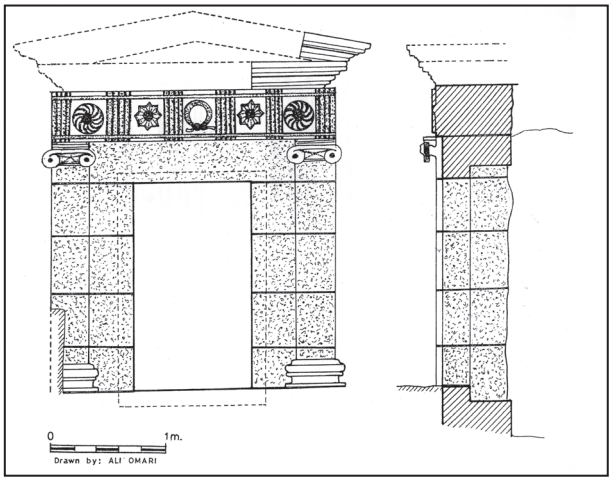

الشكل ٦-أ: واجهة مدخل لمقبرة من أم قيس

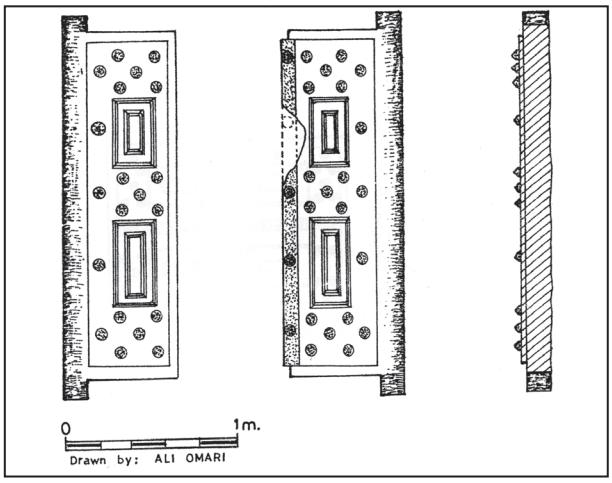

الشكل ٦-ب: باب مقبرة في أم قيس

لباسا من بلاد ما بين النهرين (ساكس ١٩٧٩: ٣١٦).

لقد كان للساحل الغربي لاسيا الصغرى والمناطق الساحلية لفينيقيا وفلسطين الاثر المهم في نقل الأفكار الثقافية والدينية من بلاد الرافدين وسوريا ومصر إلى كريت منذ نحو ٢٩٠٠ق.م وذلك بأشكال مختلفة أهمها الهجرات السكانية والعلاقات التجارية بين كريت من جهة والمدن على السواحل، وأهمها ميناء اوغاريت (Ogarit) السوري فانه يبين من عقد ملكي عثر عليه هناك أن رجلا أعفي من مكوس بضاعته التي جاء بها على متن سفينة قادمة من كريت (المرجع السابق ص ٣٢٠-٣٢١) موطن الحضارة المينوية، نسبة إلى الملك مينوس صاحب قصر اللابرنت (المتاهة) في مدينة كنوسس (Knossos) في الطرف الشمالي من جزيرة كريت.

أما في شبه جزيرة اليونان فقد قامت الحضارة المايسينية - نسبة إلى مدينة مايسيني - نحو ٢٧٠٠ ق.م وظلت هذه الحضارة في نمو إلى أن قضت مايسيني على زعامة كريت نحو ١٤٠٠ق.م ومد نشاطها التجاري ليصل إلى صقليا ومصر وقبرص والسواحل الفينيقية وإلى طروادة ومقدونيا. ولقد شهدت الحقبة التي بين ١١٠٠-٦٥٠ق.م تطورا ظاهرا لهذه الحضارة إلى أن وصلت الأوج في العصر الهلنستي الذي يشمل الثلاثمائة سنة الاخيرة بعد موت الإسكندر الكبير في عام ٣٢٣ق.م، فقد انتشرت الحضارة اليونانية في بلاد واسعة من الشرق، مصحوبة بازدهار تجاري وانفتاح اقتصادي أدى إلى انشاء مدن ذات أهمية تجارية وثقافية، مثل الإسكندرية وأنطاكيا وسلوقيا، وكذلك أم قيس وغيرها، حتى لقد عمت مظاهر الحضارة الهلنستية جميع أقطار الشرق القديم كلها بما في ذلك عيلام (ايران القديمة) والهند (عبد الواحد ١٩٨٩: ٢٠١-٢٠٢)، وكانت هذه الحضارة في أصولها وجوهرها شرقية، وصلت إلى بلاد اليونان منذ عهد قديم (الألف الرابع ق.م تقريبا)، ولكنها عادت ثانية معهم إلى الشرق في ثوب جديد عرفت فيه باسم «الثقافة الهلنستية» إذ تأثر بها الرومان الذين كان الكثير من تراثهم ذا مصدر إغريقي (المرجع السابق ص ٢٠٣، ٢٢٥، ٢٢٩).

ويظهر مدى تأثير المعتقدات القديمة لبلاد ما بين النهرين في المعتقدات اليونانية عندما نقرأ في الأساطير اليونانية أن النسوة هناك يبكين الاله الميت ادونيس عندما تموت مظاهر الخصب في الطبيعة، ويقمن الأفراح عندما يعود إلى الحياة متجسدا في شقائق النعمان في فصل الربيع، وفي ذلك محاكاة كبيرة لحال الاله تموز في بلاد الرافدين الذي كان يتجسد في كل المظاهر التي تكون في فصل الربيع، وكما تقع انانا/ عشتار في حب ديموزي/ تموز، تقع افروديت في حب ادونيس وكلا الالهين يموت في الخريف والشتاء، ثم يبعث من جديد في فصلي الربيع والصيف، وقد وجدت هذه المعتقدات طريقها أيضاً إلى سوريا وفلسطين حيث يموت بعل وادونيس كما يموت تموز أيضاً (المرجع السابق ص ١٨٧، ٢٠٨ -٢١١). وكان

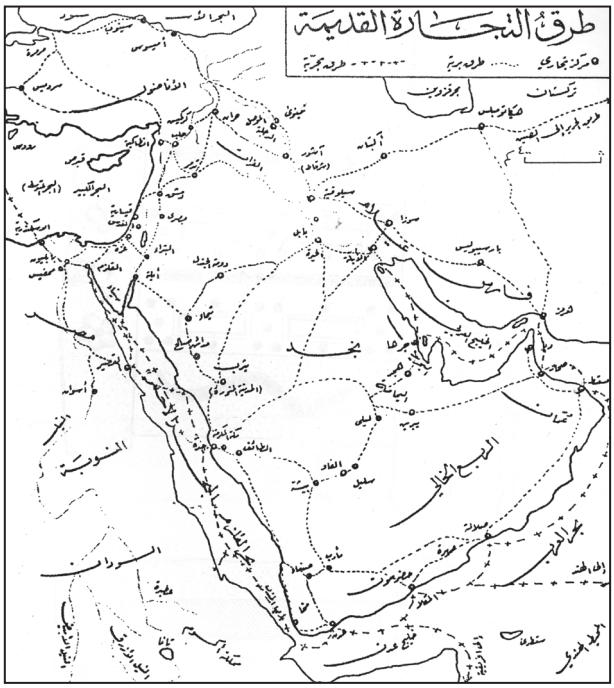

الخريطة ٢: تبين طرق التجارة القديمة التي كان لها دور في نقل الثقافات بين الشعوب.

اليونانيون يعتقدون بوجود مملكة أموات تحت الأرض يحكمها هاديس وزوجته بيرسفوني، تماما كما كانت الحال في عقائد سكان الرافدين، حيث مملكة العالم الأسفل التي تحكمها ارشكيجال وزوجها نرجال، ولمملكة الأموات اليونانية وللعالم الأسفل الرافدي مداخل أو بوابات تنزل منها أرواح الموتى، اختلفت مواقعها من أسطورة لأخرى، وتتفق الاسطورتان الاغريقية والسومرية/ البابلية أن في العالم الأسفل نهرا يعبره الموتى للوصول إلى عالم الأموات وان اختلفتا في اسم النهر وفي اسم الملاح الذي يتولى مهمة عبور الموتى. أما حساب الموتى في المعتقد اليوناني فلربما دخلت اليهم بتأثيرات مصرية فرعونية، لأنها غير واضحة في معتقدات بلاد الرافدين (المرجع السابق ٢١٨-٢١٩).

ومن الوسائل التي أعانت على انتقال الثقافة الرافدية أيضاً شيوع استعمال الخط المسماري، الذي اصبح وسيلة التدوين الرئيسية للوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين حكام بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين ومصر والحثيين والميتانيين واورارتو في ارمينيا نحو عام ١٤٠٠ق.م، وكان هذا الخط قد استخدم في وادي الرافدين ابتداء لتدوين اللغة السومرية ثم الأكادية بفروعها (البابلية والاشورية)، ووصلت اللغة البابلية أيضاً ذروة الشهرة خلال القرن الرابع عشر ق.م عندما أصبحت لغة المراسلات الدبلوماسية بين أقطار الشرق الادنى القديم، كما يدل على ذلك رسائل تل العمارنة التي كتبها بهذه اللغة حكام الأقاليم في سوريا التي كانت واحدة من مواطن النفوذ المصري زمن الملك المصري «أخناتون» ١٣٧٨-١٣٥٤ق.م».

ان مثل هذه الأدلة وغيرها ليؤكد على أن حركة السكان والطرق التجارية (الخريطة ٢) وشيوع استعمال الخط المسماري واللغة البابلية في الشرق القديم، إضافة إلى الحروب الداخلية والخارجية، كانت من أهم الوسائل التي انتقلت بها الثقافات والمعتقدات الدينية بين الشعوب في الشرق القديم عامة وكريت وبلاد اليونان خاصة، والا كيف يمكن أن نفسر سبب التشابه الكبير بين المعتقدات اليونانية وسابقتها في الشرق القديم عامة وفي بلاد الرافدين خاصة دون أن نتبنى مثل ذلك الرأي ؟!

الخلاصة

نستنتج مما سبق أن الفكر الديني السامي جاء من بلاد الرافدين إلى الجزيرة العربية، بحكم موقعها المتوسط بين الحضارات القديمة، وكان ذلك بالهجرات السكانية التي أدت إلى الاحتكاك والاندماج بين الشعوب، فنشأ عن ذلك فكر ديني أكادي وبابلي وآشوري وكلداني، إضافة إلى الأفكار الدينية الكنعانية والفينيقية والآرامية الامر الذي نتج عنه فكر ديني مشترك اختلط في بلاد الرافدين إبتداء بأفكار دينية سومرية ذات طبيعة أرضية تركز على الطبيعة في الدرجة الأولى واعتمد التقويم القمري الذي يخضع لعملية تتابع الفصول، إذ ظل القمر سيدا للآلهة في مكة وكان يرمز إليه بالصنم هبل (زكي ١٩٧٩: ١٠٤)، ولم يطرأ تبدل جوهري على الأساطير الدينية في أحقاب انتقالها عبر الحضارات المتعاقبة سوى تبديل في أسماء الآلهة وتحوير طفيف في مجرى أحداث الأسطورة حتى عندما وصلت إلى بلاد اليونان.

وهكذا فلم يكن للآلهة انانا/ عشتار، وهي مناط اهتمامنا في هذا البحث، مظهر نجمي وآخر أرضي فحسب، بل كان ذلك لكثير من المعبودات الأخرى، ولعل ذلك كان من نتائج

التوفيق بين الديانة السومرية، ديانة الخصوبة ذات المظهر الأرضي، والديانة الاكادية ذات الخصائص النجمية كباقي الديانات السامية، فقد أصبحت عشتار في العهد الكلداني المعبودة المؤنثة الوحيدة، إذ أدمجت فيها شخصية الالهات الأخرى ووظائفها ورموزها حتى أصبحت كلمة عشتار تستخدم مصطلحا للآلهة، فهي المهيمنة سيدة الأرض.

إن وجود هذه البوابات والرموز الدينية عليها في شمالي الأردن يعد مؤشرا ظاهرا على تواصل سكانه وتفاعلهم مع العناصر الدينية ذات الاصول السامية القديمة، الأمر الذي جعلهم يتقبلون هذه المعتقدات التي عادت اليهم بفعل ثقافات غربية هلنستية ثم رومانية.

في ضوء ما سبق، نستطيع أن نقرر أن دفن الموتى في مقابر كهفية مغلقة ببوابات حجرية عليها رموز دينية، في مواقع أم قيس وهام والقويلبة انما يؤشر على أسلوب آخر من أساليب عبادة القمر التي أصبحت دين الدولة الرسمي في زمن الملك نبونيد الكلداني، الذي أقام معبدا للاله القمر في حران شمالي العراق. وهكذا تكون عشتار الكلدانية هي خلاصة الفكر الديني المتعلق بتعظيم هذه الآلهة منذ أن كانت أما كبرى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطبيعة في العهد الباليوليثي إلى أن أصبحت آلهة ذات خصائص نجمية في عهود الكتابة، تناثرت شظاياها في الشرق والغرب بفعل نورها القمري الساطع وسعيها الزفعواني الحثيث وقدراتها الشافية والخلاقة ودورها السحري في بعث الحياة في الأموات والطبيعة كل أولئك جميعا. فلا غرابة إذاً أن نجدها ممثلة على بوابات البحث في صورة افروديت المقابر الهلنستية، افروديت – فينوس الرومانية.

وقد حارب القرآن الكريم هذه المعتقدات وأمثالها في آيات كثيرة أشرنا إلى بعضها في سياق البحث ونختم الآن ببعضها الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي زنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ الأنعام ٩٥-٩٩.

أ.د. عبدالجليل عبدالعزيز عمرو: قسم الآثار, الجامعة الأردنية, عمان – المملكة الأردنية الهاشمية.

المراجع

أولا: المراجع العربية:

حتي، فليب، ١٩٥٨، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت.

خان، عبد المعيد، ١٩٨٠، **الأساطير والخرافات عند العرب**، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

الخطيب، عفراء علي، ٢٠٠٢، **الثالوث الكوكبي المقدس**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط.

الخطيب، محمد، ١٩٩٩، **الفكر الإغريقي**، منشورات دار علاء الدين، دمشق.

داوود، احمد، ١٩٩٧، **تاريخ سوريا الحضاري القديم – تصحيح وتحرير**، دمشق.

داوود، احمد، ١٩٩٧، **تاريخ سوريا الحضاري** – المركز، دمشق.

داوود، انس، ١٩٧٥، **الأسطورة في الشعر العربي الحديث**، القاهرة.

الدباغ، تقي الدين، ١٩٦٧، «آلهة فوق الأرض ، دراسة مقارنة بين المعتقدات الدينية القديمة في الشرق الأدنى واليونان»، **سومر**، العدد ٢٣، ١٠١-١٣٣.

زكي، احمد كمال، ١٩٧٩، **الأساطير دراسة حضارية مقارنة**، دار العودة، بيروت.

ساكس، هاري، ١٩٧٩، **عظمة بابل**، ترجمة عامر سليمان إبراهيم، الموصل.

السواح، فراس ١٩٨٩، **مغامرة العقل الأول، دراسة في الأسطورة سورية وبلاد الرافدين**، دار الكندي للترجمة والنشر والتوزيع، دمشق.

السواح، فراس، ١٩٨٦، **لغز عشتار الالوهة المؤنثة واصل الدين والأسطورة**، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق.

عبد الواحد، فاضل، ١٩٨٩، **من ألواح سومر إلى التوراة**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

عبد الواحد، فاضل، ١٩٨٦، **عشتار ومأساة تموز**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

العلي، إبراهيم محمد، ١٩٩٥، **الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الابنياء عليهم الصلاة والسلام**، دار القلم، دمشق.

فرزات، محمد حرب، ١٩٩٢، «الديانة الفينيقية وعناصر الميثولوجية في حضارة سورية القديمة مراجعة لمصادر دراستها وأهم ملامحها»، **دراسات تاريخية**، العددان ٤١ و٤٢ آذار – حزيران، ٤٣-٦٣.

الماجدي، خزعل، ١٩٩٨، **إنجيل سومر**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.

محيسن، سلطان، ١٩٨٧، **عصور ما قبل التاريخ**، دمشق.

ثانيا: المراجع غير العربية:

Frazer , James. 1971. **The Golden Bough** , Macmillan , New york.

Guthrie , W. C. K. 1955. **The Greeks and Their Gods** , Beacon press , Boston.

Harding , M.E. 1976. **Woman's Mysteries** , Harper and Row , New york.

Heyob , S.K. 1975. **Cult of Isis Among women in the Graeco – roman World** , Leiden.

Mare, W., «Quweilbeh», 1989, **Akkadi ca**, VIII, 474-477.

Neuman , E. 1977. **The Great Mother** , Princeton , New york.

Nielsen, S., 1989, «Um Qeis», **Akkadi ca**, VII, 598-611.

Shraideh & Lenzen, 1984, **ADAJ** XXVIII, 299.

Vermaseren , M. J. 1977. **Cybele and Attis , The Myth and The Cult** , Thames and Hudson , London. Weber, T., 1989, «Um Qais», Akkadi ca, VII, 607.